

قراءتفرنسية للاحتلال البريطاني لعدن

د. مسعود سعيد عمشوش*

في معظم الدراسات التي تتناول تاريخ اليمن في القرن الماضي يتم التطرق لموضوع التنافس الدولي، وبالأذات البريطاني - الفرنسي، في منطقة جنوب البحر الأحمر. وفي الغالب تستند تلك الدراسات على وثائق بريطانية، ويكاد يعدم فيها ذكر المراجع الفرنسية. فالباحث أحمد محمد بن بريك، مثلاً، لم يذكر أي مرجع فرنسي في دراسته عن ((اليمن والتنافس الدولي في البحر الأحمر ١٨٦٩ - ١٩١٤)) (١) أيضاً المراجع الفرنسية في كتابات د. جاد طه و د. فاروق أباطة مقارنة ((بالعدد الكبير للمراجع البريطانية التي أوردها (٢)

إن ندرة استخدام المصادر والمراجع الفرنسية في تلك الدراسات تعود الى عدم إلمام معظم الباحثين العرب باللغة الفرنسية، وكذلك إلى عدم وجود مسح شامل للكلم الكبير من الوثائق والدراسات الفرنسية المتعلقة بالبحر الأحمر واليمن وبعدهن بالأذات.

في الصفحات التالية، سنقوم بعرض لنصين فرنسيين: الأول نشره الرحالة الدبلوماسي فيكتور فونتاتية سنة ١٨٤٤ ضمن كتابه ((رحلة إلى الهند والخليج العربي)) (٣). والثاني عبارة عن دراسة طويلة حول ((شبه جزيرة عدن والسياسية البريطانية في البحار العربية)) نشرها الكاتب الرحالة ل. سيمونان في مجلة

((لاريفو دي دو موند la Revue des deux mondes)) في مطلع عام ١٨٦١، وذلك بهدف إبراز الرؤية الفرنسية لأهمية ميناء عدن في مطلع القرن التاسع عشر، ثم تقديم ردود الفعل الفرنسية، الرسمية والشعبية، تجاه الاحتلال البريطاني لعدن في سنة ١٨٣٩.

عند قراءتنا لدراسة ل. سيمونان ننبين لنا، بما لا يدع مجالاً للشك، أن خشية البريطانيين من ازدياد حجم الأطماع الاستعمارية الفرنسية والتي عبرت عنها توجيهات نابليون بونابرت

نحو الشرق، هي التي دفعت بريطانيا إلى احتلال عدن. ففي السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، بدأت عدن، التي كانت في التاريخ القديم وحتى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، قد اشتهرت كميناء تجاري هام، تستعيد تدريجياً أهميتها. لكن، في البداية، لم تركز هذه الأهمية الجديدة على عوامل تجارية، كما هو الحال في السابق، بل استندت على عوامل استراتيجية وعسكرية ساعد على بروزها إلى السطح احتلال نابليون لمصر وتفكيره في إرسال قوات ضخمة لضرب التواجد البريطاني في الهند. وقد عبر سيمونان عن نقطة البداية هذه قاتلاً

في نهاية القرن الثامن عشر وجهت بريطانيا أنظارها إلى عدن. ففي تلك الفترة، كان الجنرال بونايرت يفكر للمرة الأولى في مشروع ضخم ظل يراوده طوال حياته ويهدف إلى شن هجوم عنيف ضد القوات البريطانية في الهند. عندئذ يبادر البريطانيون إلى احتلال جزيرة بريم إذ أنهم أدركوا الأهمية الكبيرة لموقع هذه الجزيرة التي يطلق عليها العرب: مفتاح البحر الأحمر. ولاشك في أن الطريقة التي تمركز بها البريطانيون في بريم كانت ستمكنهم من إيقاف تقدم القوات البحرية التي أراد نابليون إرسالها من السويس. لكن تلك القوات لم ترحل إذ أن أمورا أخطر اضطرت نابليون إلى مغادرة مصر والعودة إلى أوروبا. ومع ذلك، فالبريطانيون، الذين تأكدوا تماماً من أهمية المنطقة، لم يصرفوا النظر عن المدخل الجنوبي للبحر الأحمر. ففي سنة ١٨٠٢ وقعوا ((اتفاقية صداقة وتجارة)) مع سلطان لحج الذي تخضع له (عدن).

بالرغم من أن سيمونان لم ينشر دراسته إلا بعد أن بدأت عدن تستعيد جزءاً من أهميتها كميناء تجاري، وبالأذات بعد تحويلها إلى ميناء حر سنة ١٨٥٠، فسيمونان يرى أن أهمية عدن بالنسبة للبريطانيين تعود في المقام الأول إلى موقعها الاستراتيجي من وجهة نظر عسكرية.

* استاذ مساعد - قسم اللغة الفرنسية كلية الآداب - جامعة عدن

او كلاتد في ٢٦ مارس ١٨٣٨ يشرح له فيها أهمية ميناء عدن لحركة الملاحة البريطانية وضرورة الاسراع في السيطرة عليه . ومن الملفت للانتباه أن فونتاتيه ، الذي أخطأ التقدير عندما قلل من أهمية عدن ، قد ظل مصرا على رأيه حتى بعد أن زارها مرة ثانية في سنة ١٨٤٧ ، أي بعد أن صارت محطة يتوقف فيها معظم المسافرين الى جنوب شرق افريقيا والهند وشرق آسيا. ففي كتابه الثاني ، والذي نشر في باريس سنة ١٨٥٣ تحت عنوان ((رحلة في الجزر الهندية)) كتب فونتاتيه عن عدن :

((هذه المدينة ظلت كما هي ، وكما سبق أن قلت أنها ستكون : جحرا للحم)) (٤) * * *

في كتابه الأول ((رحله الهند والخليج العربي)) يشير فونتاتيه، الذي كان في سنة ١٨٣٩ موجودا في بومبي فيطلب من البريطانيين تفسيراً رسمياً لاحتلالهم عدن ، إلى رسالة بعثها سكرتير السيد روبرت جرانست ، حاكم بومبي ، الى الضابط المسؤول عن ثكنة عدن يأمره فيها ((بعدم مناقشة أسباب الاستيلاء على عدن بسبب الغيرة التي يبعثها هذا الأمر في نفوس الفرنسيين)) .

في الواقع ، لم يكن موقف الفرنسيين تجاه الاحتلال البريطاني لعدن وماسبقه من تمهيدات مجرد ((غير)) . فاحتدام التنافس الاستعماري بين بريطانيا وفرنسا في تلك الفترة جعل الفرنسيين يعارضون ويشجبون بشدة الاستيلاء على عدن . فمن المعلوم أن القرن الماضي قد شهد ازديادا في عدد ((البعثات الاستكشافية والطوبوغرافية)) في منطقة البحر الأحمر والقرن الأفريقي . وقد اعتبر البريطانيون النشاط الفرنسي الواسع في تلك المنطقة ((عملا من أعمال المخابرات الفرنسية يهدف في الدرجة الاولى الى مراقبة النشاط البريطاني في البحر الأحمر)) . وفي الحقيقة ، لم تنحصر التحركات التي أفرزها التنافس بين بريطانيا وفرنسا في المنطقة حينئذ في تلك ((التحركات))

فهو يقول : ((إن عدن يمكن اعتبارها حقا جبل طارق البحر الأحمر ، كما سماها البريطانيون ، أكثر خطورة من جبل طارق الآخر والذي لا يسيطر إلا على بحر داخلي . إن جبل طارق البحر الأحمر يتحكم تماما في طريق الهند ؛ فهو يحميها لدرجة أن أي سفينة تجتاز بباب المنذب لن تستطيع أن تكون بمنأى عن نيران مدافع بریم التي يمكن اعتبارها الخطوط الدفاعية الامامية لعدن))

لقد وفرت عدن لبريطانيا موقعا فريدا من نوعه ولا يقر بثمن إنها قاعدة لإعداد العمليات . ففيها تحفر بريطانيا جميع فتوحاتها في البحر الأحمر وتقدمها المستمر باتجاه البحر العربي وسواحل شرق افريقيا . ومن عدن يمكن مراقبة مايجري في الخليج العربي . لم يسبق لدولة ذات قوة بحرية أن استولت على قاعدة تفوق عدن في الأهمية)) .

إذا كان الرحالة ل . سيمونان لم ير إلا دوافع عسكرية وراء الاحتلال البريطاني لعدن ، فالقصاص الفرنسي فيكتور فونتاتيه كان ، بالمقابل ، مقتنعا بأن البريطانيين قد استولوا على عدن ليجعلوا منها مستودعا للقمح وبين رأيه هذا في كتابة ((رحلة الى الهند والخليج العربي)) قائلا: ((يريد البريطانيون الحصول على ميناء تستطيع فيه سفنهم البخارية التزود بالقمح خلال رحلتها بين السويس وبومبي . وقد حاولوا أولا الاستقرار في سقطرة ، حتى أنهم تملكوا تلك الجزيرة وأرسلوا إليها بعض الفرق العسكرية ، لكنهم انسحبوا منها بسبب عدم وجود ميناء جيد وعدم ملائمة الطقس . ثم بنوا مستودعات للقمح في المكلا ، في جنوب شرق شبه الجزيرة ، وفي المخا وجده والسويس . وكانوا يستخدمون تلك الموانئ حسب الحاجة . وفي الأخير ، عندما تطورت الملاحة البخارية ، أتضح لهم أن ميناء واحد سيكفي ، ووجدوا أن ميناء عدن يلتم تماما وقرروا احتلاله)) . ولكي يدعم أقواله هذه نشر فونتاتيه في ملحق كتابه رسالة بعثها حاكم بومبي الى الحاكم العام للهند للسرد

لأندري إذا كانت اعتقادات النقيب فليكس تركز على زيارة القبطان لابلان إلى المخا أو على الخطوة التي اعتقدت أن من الواجب على القيام بها لدى حاكم بومبي . فقبيل إرسال القوات البريطانية إلى عدن تلقينا أخبارا عن وقوع سوء تفاهم بين السفير البريطاني والحكومة الإيرانية ، وعن إرسال قوة بريطانية إلى الخليج العربي .

وحسب العادة ، تم التعليق على الإجراءات البريطانية وفقا للمصالح والآراء المختلفة . وبما أن وظيفتي تفرض علي نقل كل ما يتعلق ببيران إلى وزارتي ، فقد قررت أن أنقل إليها أسباب التحركات البريطانية لهذا طلبت من الحاكم أن يطلعني عليها إذا لا يوجد مانع . وقد نقلت بأمانة التبريرات التي أراد أن يقدمها لي كانت مطابقة لما قدم للرأي العام . وعندما أرسلت قوات إلى عدن قمت بخطوة مماثلة لدى السيد فارتن لكن دون جدوى ، إذ امتنع البريطانيون عن الإجابة لأتني - حسب زعمهم - كنت مفوضا عاما في البصرة وليس في الهند . وفي الواقع كانت المعلومات التي طلبتها متعلقة بالجزيرة العربية وتدخل في إطار وظيفتي كمتصل في الجزيرة العربية (مقيما) في البصرة . وبالمقابل ، لم يكن من حقي الاستفسار ولو بطريقة غير رسمية عن أي شيء يحدث في الهند بما أنني لست مفوضا فيها .

لأزال حتى اليوم حزينا بسبب اضطراري إلى وضع السيد فارش ، الرجل الصادق والأمين ، في موقف يجبره على الإجابة . وفي الواقع لم يصبح السيد فارش حاكما إلا اعتبارا لأقدميته وذلك إثر وفاة السيد روبرت جرات . ولأريب في أن السيد فارش كان سيرد على طلبي وسيكفني بإبلاغ حكومتي الأسباب العادلة والمشروعة لاحتلال عدن لو كانت تلك الأسباب عادلة ومشروعة . لكنه لم يكن حازما . فالجميع يقولون أنهم يحتلون عدن لأنهم يجدون فيها الكثير من المزايا . لهذا لم أخض أن أقدم للسيد فارش ملاحظات مثل تلك التي سبق أن قدمتها . وقد أخذت بعين الاعتبار حرص وحذر السيد

الاستكشافية))، بل تجاوزت ذلك واشتملت على تحركات عسكرية قامت بها القوات البحرية للجانبين . ففي كتابه ((اليمن والغرب))، يذكر إريك ماكرو أنه ((في سنة ١٨٣٨ كانت الحراسة الفرنسية ((بريقويانت)) تقوم برحلة في البحر الأحمر بقيادة القبطان وليام)) (٦) . أما فيكتور فونتاتيه فقد تناول المخاوف البريطانية التي سببها وصول السفينة الفرنسية لارتيمز " بقيادة القبطان لابلان إلى جنوب البحر الأحمر قائلا :

((لاشك أن الريبة التي حكستها إجراءات حكومة بومبي عندما راقبت تحركات الكابتن لابلان بعد رحيله والسرعة التي رفع بها ممثلوا السلطان تفاصيل مباحثات لابلان في مسقط ، لاشك أن كل ذلك قد جرح هذا الضابط . صحيح أنه كان . دون أن يعلم ، قد قاد سفينة " لارتيمز " بالقرب من المواني التي تحاك فيها إحدى المؤامرات الأكثر خزيا في التاريخ : لقد ذهب إلى المخا، وبالتالي فهو قد اقترب من عدن)) .

وهنا يمكننا الاعتقاد بأن التواجد الفرنسي العسكري بالقرب من عدن كان من العوامل التي دفعت هينز وحكومة بومبي إلى سرعة حسم الموقف في عدن واحتلالها بالقوة . أما بعد أن استولى هينز على عدن ، فلم يكن مقدرا لردود الفعل الفرنسية الرسمية أن تتجاوز الاستفسار عن الدوافع " وفي الواقع ، يدخل هذا الإجراء في إطار عادة " المعاملة بالمثل " . فقبيل تسع سنوات من تاريخ دخول البريطانيين عدن اتهمت بريطانيا فرنسا بأنها تحاول أن تجعل من البحر الأبيض المتوسط بحيرة فرنسية ، ولكنها لم تقدم لها سوى استفسار عن الدوافع التي تكمن وراء احتلالها لعدن . وقد كشف القنصل فيكتور فونتاتيه ، في كتابه " رحلة إلى الهند والخليج العربي " ، النقاب عن طبيعة ردود الفعل الفرنسية الرسمية تجاه الاحتلال البريطاني لعدن ، وذلك عندما أراد أن يجد مبررا آخر لمشاعر الريبة التي أثارها وصول سفينة " لارتيمز " إلى البحر الأحمر حيث يقول :

عام . وهنا يجب أن نشير إلى أن عمليات التوسع الاستعماري ، ومنذ البداية ، لم تستند فقط على رغبات الحكومات الرسمية في الغرب ، بل اعتمدت كثيرا على الأفراد والشركات التجارية ، حتى أنه يقال أن من أسباب فقدان الملكية لشعبيتها ثم سقوطها في فرنسا تركها بريطانيا تستولي على الهند . كما أن الحياة الفكرية في فرنسا إحتوت هي أيضا على قدر من التناقض . فالآراء التحريرية لفلوتير لم تمنعه ، مثلا ، من شراء أسهم في شركات استعمارية تتاجر بالرقيق .

لهذا نرى أن فيكتور فونتانيه ، عندما يسعى إلى التقليل من شأن الضبعة الرسمية لأقواله ، إنما يحاول أن يخفي بشكل ذكي رغبة في توزيع الأدوار وبالتالي في طمس الأزدواجية التي يحتويها الخطاب الاستعماري . فهو يسند الشق الأول - الذي يشجب العمليات الاستعمارية - بواجباته الرسمية ، ويأخذ على عاتقه مسؤولية الشق الثاني الذي يسعى إلى تبرير الاستعمار ، حيث يقول :

((من الخطأ إرجاع مآثرته للغيرة الوطنية . ولاشك أنني كموظف حكومي في بلد تربطه بفرنسا - كما هو الحال ببقية القوى الأوروبية - موثيق ومعاهدات ، ملزم بالسهر على احترام تلك الاتفاقيات . وكان علي أن انتقد بريطانيا كما كنت سانتقد أي دولة أخرى لو كانت قد أنتهكت تلك المعاهدات . لكن هنا تنتهي مهمتي الرسمية . وبعد أداء واجبي يمكنني الاعتراف بأنني قد سررت لرؤية بريطانيا تنتشر سيطرتها في البلدان البربرية .

هل يجب أن نغضب حقاً لأن عدن ، بدل أن تكون وكراً للقراصنة أصبحت مستودعاً للفحم ، ولأن السفن البخارية صارت تمكن المسافرين إلى الهند من الاستغناء عن خدمات محمد اسماعيل ، ولأننا سنستلم الرسائل من أوروبا في غضون شهر واحد بدلا من خمسة أو ستة أشهر؟ هل من الشهامة أن نأسف لحدوث أشياء مفيدة

فارش عندما كتبت إلى فرنسا أنه إذا تم تأجيل الحملة - والتي كانت مستعدة للرحيل في فترة زيارتي - لمدة خمسة عشر يوما فيكون ذلك لأن الحاكم العام هو الذي أمر بالقيام بالحملة وليس حاكم بومبي . فالخمس عشرة يوما كانت كافية لنقل ملاحظاتي للورد أوكلاند (الحاكم العام للهند) . وقد حدث التأجيل فعلا . وإذا كان ذلك للسبب الذي ذكرته فأنتني بنفلي لهذه التفاصيل أقدم خدمة جليلة للسيد فارش)) .

من الواضح أن كتاب " رحلة إلى الهند والخليج العربي " يحتوي على معلومات وقرارات من التقارير الرسمية التي كان فيكتور فونتانيه يرفعها إلى حكومته . لذلك فقد لفت الكتاب في الحال انتباه البريطانيين الذين سارعوا إلى ترجمته ونشره في نفس سنة صدوره في باريس وذلك تحت عنوان " سرد لمهمة في الهند " (٧) . ومع ذلك فيكتور فونتانيه بفضل أن يجعل من مبادئه الشخصية منطلقا تركز عليه انتقاداته للطريقة التي سلكتها بريطانيا في الشرق ، وأن يقلل من شأن البعد الرسمي لما يكتبه . فهو ، مثلا ينفي أن يكون لشعور فرنسا بالغيرة أي علاقة بشجبه للاحتلال البريطاني لعدن .

في الواقع ، لن يكون من الصعب أن نلمس في كتابات فيكتور فونتانيه ول . سيمونان ازدواجية وتناقض الخطاب الاستعماري الفرنسي الذي أخذ على عاتقه مهمة تبرير ماتفرضه المنافسة من فضح وشجب لما تقوم به القوى الاستعمارية الأخرى ، وذلك ليس تفهما للحقوق الوطنية للشعوب المستعمرة ، لكن بهدف معاملة القوى المنافسة بالمثل . ومن البديهي أن يركز الخطاب الاستعماري في نقده لعمليات الاحتلال على منطلقات إنسانية وأخلاقية ، وعلى ضرورة التزام الجميع بالمواثيق والاتفاقيات الدولية أما في شقه الثاني ، فالخطاب الاستعماري الفرنسي - كما تبرزه كتابات فونتانيه وسيمونان - يحاول قدر الامكان الابتعاد عن الضبعة الرسمية ليستند على عدد من الأطروحات الحضارية والعنصرية والدينية في تبريره للاستعمار بشكل

يفترض أن يكون على علم بما جرى ، يظان المسؤولون عن هذه العملية غير الأخلاقية والتي تعطي لكل من يلم بالقانون حق وسم الشعب البريطاني بالتفاق .

إن القراصنة لا يثيرون التعاطف . لكن احتلال عدن بدون مبرر يعني أن نتصرف مثلهم . ومع ذلك ، لو كانت بريطانيا ، التي احتلت عدن بعد أن اعترفت صراحة بحاجتها الماسة إليها ، قد عوضت بشكل منصف السكان ، اشك في أن السلطان ، الذي لم يكن في الواقع سوى زعيم للصوص ، سيحظى بأي اهتمام لكن من غير الممكن أن نرى وزراء أمة عظيمة يوافقون على مثل هذه المؤامرات الوضيعة ضد عربي بانس ، وفي نفس الوقت يقدمون أنفسهم للعالم كاحرص الناس على العدالة والأخلاق .

بالرغم من أن سيمونان كان مجرد كاتب ورحالة ولم يشغل أي وظيفة رسمية إلا أن وطنيته لم تسمح له بأن يكتفي بالتأييد المطلق للاحتلال البريطاني لعدن . فهو أيضا يلجأ إلى الخلط بين الاستتكار والتصنيف لوصول البريطانيين إلى عدن ، ويكتب بنبرة استعمارية صارخة :

((لكي تبرر بريطانيا تدخلاتها المتتالية وعملياتها التوسعية العنيفة في الغالب ، تقدم دائما أسبابا محدودة . احتلال عدن كان بمثابة انتقام ضد بعض القراصنة .. إنه ، في الحقيقة ، احتلال - لاثبره إلا قوانين المنتصر في الحرب - لقلعة محكمة التحصين تتحكم بريطانيا بواسطتها على جميع البحار العربية))

((ومع ذلك ، فهو لا يعني أنني أريد توبيخ السياسة البحرية لبريطانيا أو أنني لا أتمنى أن أرى فرنسا تسلك نهجا مماثلا . إن إحدى الظواهر الاجتماعية التي يتميز بها هذا القرن تكمن في تقدم الحضارة النشط والسريع ومطاردة البربرة التي تكاد تختفي من على سطح الأرض تاركا المكان للأعم المتنورة . من هذا المنطلق ، اتقبل عمليات التملك البريطانية والمستمرة في

للآسيات لمجرد أن هذه الدولة وليست تلك قد قامت بها ؟ ... لا أحد يستطيع أن يلومني بسبب أفكار الضيقة هذه . فانا مقتنع تماما بعجز الحكومات الإسلامية عن الإدارة بطريقة أخلاقية عادلة - أنني لن أسف لسقوطها أكثر من أسفي لمصير الهنود الحمر في أمريكا . ولا أحد يحتقر أكثر مني مبدأ سلامة الأراضي العثمانية الذي يحاول البعض أن يجعل منه مثالا للحق العام . عينا سنزعج لرؤية فرنسا تستولي على إفريقيا ، وروسيا وبريطانيا تنقسمان شمال وجنوب آسيا ، والنمسا تكتسح مقاطعات الدانوب والجزء الأوربي من تركيا . سوف أصفق لكل تلك الفتوحات إذ أنني لا أعرف أنبل منها ولا أكثر فائدة للجنس البشري))

بالرغم من هذا التصفيق ، وبالرغم من أنه سبق أن جعلنا نفهم أنه لم ينتقد الاحتلال البريطاني لعدن إلا ليؤدي وظيفته ((ففكتور فونتانيه يعود ، في نهاية حديثه عن عدن ، لينتقد ((التفاف البريطاني)) وليس مني المسؤولين عن ((إحدى المؤامرات الأكثر خزيا في التاريخ)) ، لكن هذه المرة من منطلقات إنسانية وأخلاقية ، حيث يقول :

((لكن إذا كان باستطاعتنا أن نشلهد ، دون غيره ، موقعا غير هام مثل عدن يقع بين أيدي البريطانيين ، وحتى لو كان على الناس المدركين للأمور أن يبتهجوا للاستفادة من صخرة قاحلة ، فهو لا يبرر امتداحنا لأسلوب التفاف الذي أستخدم في عملية الاستيلاء على عدن . فمثل هذه الأفعال تسيء لسمعة الشخصيات الرسمية التي سمحت بالقيام بها ، ويجب أن نسمي أولئك الذين جعلوا أنفسهم مجرمين بالمشاركة في هذا الفعل : السيد جون هوبهاوس كان رئيس مكتب الرقابة في فترة احتلال عدن . وقد نقل إليه اثنان من مدرائه رسميا كل الأمور التي ذكرتها واحتج على عملية السطو ، وأعربا عن أسفهما الشديد لتطبيع الشرف البريطاني . ومع ذلك لم يتم القيام بأي تحقيق إن السيد هوبهاوس واللورد بالمرستون الذي كوزير للخارجية ،

و ((ان ماتعرضت له كان نتيجة لسوء تقدير بحارتها ونقل حمولها من جهة و الى فعل العوامل الجغرافية من هبوب الرياح واحتدام الامواج وارتطام السفينة بصخور الساحل القريب من عدن من ناحية اخرى)) (٩)

اما فيكتور فونتاتية، الذي كان -كما ذكرنا- يعمل كقنصل لفرنسا في البصرة، فيؤكد ان السفينة قد اغرقت عمدا، ويستند في ذلك على بعض التفاصيل التي اوردها في النص التالي:

((لكي ندرك جيدا المكر الذي ارادت حكومة بومبي استخدامه لاحتلال عدن، يكفي أن نذكر بالتبدير الذي قدمته في البداية: سفينة هندية، تدعى ((داريا دولت)) وترفع العلم البريطاني، تاهت بمحض ارادتها بالقرب من عدن. فقام السكان بنهبها وأساعوا معاملة ركبها. وحالما استلمت حكومة بومبي الخبر طلبت الأذن بالاستيلاء على المدينة. وقد اعترف السيد روبرت جرانت انه لم يكن يهتم بالحصول على الموافقة بل بضرورة الاستفادة من العملية التي كان سيقدم عليها. وأضاف انه يجب الاسراع لان فرصة أخرى مناسبة كهذه يمكن انتظارها دون جدوى عدة قرون. لكن هل يود احد ان يعرف ماهي حقيقة سفينة ((داريا دولت)) التي حظيت بكل هذا الاهتمام؟

في الواقع، نجح ناخوذة فارسي في القيام بتأمين سفينة قديمة لدى شركة تأمين محترمة في بومبي، اعتقد انها شركة راوينجتون. وبعد ان وصل الناخوذة بالسفينة الى شط العرب افروغ الحمولة وافتعل عملية جنوح للسفينة. وتم اعداد اوراق مزيفة تثبت ضياعها. وقد اخبرني احد الارمنييين انه قد استلم اربعمئة فرنكا مقابل كتابة الاوراق باللغة الانجليزية. وقد دفعت شركة راوينجتون التأمين. ومن ثمرة هذه العملية النزيهة تم ((بناء)) دوريا دولت التي يقال انها ملك لاحد الامراء الاجانب: نظلم حيدر آباد. لذلك لا يوجد أي مبرر ليرفع العلم البريطاني فوق هذه السفينة التي تم الاسراع الى نجدها بالقرب من

البحار العربية، وكذلك تدخلاتها واحتلالاتها العنيفة كما يشاء البعض أن يسميها، وأفضل رؤية الصليب على رؤية الهلال. وإذا كان هناك قانون أخلاقي يقضي بأن الخير لا يمكن فعله بدون قليل من الشر، سيكون بإمكاننا إيجاد عذر للمساعي التي تقوم بها بريطانيا من أجل إحلال النشاط المثمر في مكان الجمود العميق للأجناس المسلمة)) .

في كتابه ((رحلة الى الهند والخيخ العربي)) يتناول فيكتور فونتاتيه بعض التفاصيل الهامة المتعلقة بالاحتلال البريطاني لعدن. لكن من الصعب جدا اضافة صبغة تاريخية على تلك التفاصيل التي يبدو ان فونتاتيه لا يوردها الا بغرض تبرير انتقاداته اللاذعة ضد الحكومة البريطانية والتي تدخل الاضرار الشامل لردود الفعل الفرنسية ضد الاحتلال البريطاني لعدن. وهذا يجبرنا على الحذر وعدم التسرع في اضافة المصادقية على جميع الوثائق والمعلومات التي يحاول الخطاب الاستعماري تسريبها اليها حينما يشاء لنقوم نحن بتريسيخها في كتبنا التاريخية.

من تلك التفاصيل ما ذكره فونتاتيه حول حادثة السفينة ((دوريدولت)) التي استخدمها البريطانيون كورقة للضغط على السلطان محسن لكي يسلم لهم عدن.

وفي الواقع اختلف المؤرخون حول أسباب وطبيعة تلك الحادثة. فالدكتور جاد طه والدكتور فاروق اباطة يستبعدان ان يكون هناك تدبير مسبق لتحطيم السفينة. فالاول يرى ((ان تحطم السفينة قد حدث اما لاهمال بحارتها وسوء شحنتهم للبضائع كما جاء في شهادة الناخوذة نور الدين، واما ان يكون بفعل الاحوال الجوية والامواج والصخور، أي ان غرق السفينة قد تم دون أي تدبير او افتعال، الا ان بريطانيا استغلت وقوع هذه الحادثة واعتبرتها نقطة البداية في تنفيذ اول ادوارها المرسومة في منطقة جنوب الجزيرة العربية)) (٨).

وكذلك يرجح د. فاروق اباطة الراي القائل بان جنوح السفينة قد حدث دون تدبير او افتعال

يحق لبريطانيا ميدنيا أن تعترف -لأي غرض كان- بشيخ عربي لقب نفسه سلطانا، كما لك لهذه البلاد لمجرد انه استقر فيها. صحيح أن الخليفة العثماني لا يملك أي سلطة في عدن التي يدعي أنها تابعة له. لكن الحالة نفسها موجودة في كثير من المدن الأخرى والتي تقع عند مشارف اسطنبول. شخصيا، أرى أنه بمقدوري أن اتحصل من جميع حكام تلك المدن على ورقة يتعهدون فيها بتسليمي دولهم مقابل مبلغ من المال، وربما كان الخليفة نفسه مستعدا لتقديم تعهد مماثل بشأن اسطنبول. وفي الواقع، من المؤكد أن هؤلاء السلاطين سيقبضون المال، لكنهم، في معظم الأحيان، لن يسلموا البلاد. وبريطانيا نفسها، هل ستكتفي بأن تقدم لها روسيا قطعة من الورق لكي تعترف بامتلاك روسيا لجزر من أراضيها؟

وفي الحقيقة حتى هذه القطعة من الورق لا توجد بالنسبة لعدن. وقد أكد هذا الأمر السيد هنري ويلوك، أحد مدراء شركة الهند في رسالة مفتوحة بعثها إلى اللورد ميلبورن وقد شجب فيها عملية الاستيلاء على عدن واعتبرها من أعمال العنف وانتهاك القوانين. كما أن اللورد ليند هورست احتقر هو أيضا التفسيرات التي قدمتها الحكومة البريطانية حول هذا الموضوع. إن آراء هؤلاء الرجلين البارزين حول هذه العملية تبرر العبارة التي سبق أن وصفت بها احتلال بريطانيا لعدن. (١٢)

سأشرح الآن لماذا استطاع السير هنري ويلوك أن يؤكد عدم وجود وثيقة ملكية خاصة بعدن، بينما تؤكد الحكومة البريطانية العكس من ذلك:

الكابتن هينز، الذي كان مكلفا بالقيام بالمفاوضات، لم يكن يعرف اللغة العربية واصطحب معه رجلا فارسيا أجمع كل الذين مروا في عدن على أنه كان رمزا للنذالة، ووصفوه هكذا حتى في الصحف. لكي يسهل هذا المترجم الفارسي (١٣) الاجراءات الدبلوماسية قام بسرقة ختم الشخص الذي يسمى نفسه سلطان عدن

عدن عندما كانت تقوم بمحاولة جنسوح متعمد كاذب افعلته في شط العرب. ولهذا كان الحاكم العام للهند -اللورد اوكلاند- أكثر حرصا ونزاهة من زميله حاكم بومبي عندما رفض الموافقة على اتباع هذه الخطة لاحتلال عدن)).

يمكن أن نشير هنا إلى أن بعض التفاصيل التي ذكرها فونتاتيه تتطابق مع بعض الآراء البريطانية وبالذات مع وجهة نظر الكابتن هينز نفسه الذي ((يميل إلى الرأي القائل بأن السفينة قد اغرقت عمدا)). (١٠) كما أن د. فاروق اباطة استند على بعض الوثائق البريطانية لكي يسود رأيا مغايرا لرأيه الشخصي. وفقا لتلك الوثائق ((كانت هناك مؤامرة بين نساخوذة السفينة ورئيس الشحن بها، حتى يقوم الأخير بشحنها بحمولة تزيد كثيرا عن طاقتها لكي تجنح إلى الساحل وتعرض حمولتها للغرق. والسبب في ذلك هو أن صاحب البضائع التي تحملها السفينة كان قد أمن عليها بمبلغ يفوق بكثير قيمتها الأصلية وأنه كان يريد أن يحصل على قيمة التأمين ويعطي لشريكه نصيبهما)). (١١)

كما يفصح فونتاتيه عن ذكاء شديد عندما يقرن بين عدم احترام بريطانيا لالتزاماتها الدولية وانتهاكها للمعاهدات واضرارها بمصالح ((الدول المحايدة)) بقدموها على احتلال عدن، وبين إثارة قضية عدم تمكن الكابتن هينز من الحصول على وثيقة تنازل من السلطان محسن، وذلك لكي يوجه انتقادا شديدا آخر لبريطانيا، حيث يقول:

((إن شراء مدينة ما أمر أقل إخلالا بالمبادئ الأخلاقية من الاستيلاء عليها بالقوة وتحت مبرر سيء. وفي كل الأحوال، ينبغي في مثل هذه الأمور التأكيد من عدم الإضرار بمصالح المحايدين، والاطلاع الجيد على وثائق الملكية التي بحوزة البائع. ومن المعلوم أن الاتفاقيات بين ((الباب العالي)) وبريطانيا -والتي بمقتضاها يوجد سفير بريطاني في اسطنبول- تنص على أن عدن تخضع لسلطة الخليفة العثماني- لذلك لا

1852, P. 149.

Thomas Marston: ((Britain's Imperial Rol in the Red sea area 1800-1878. In

فاروق عثمان أباطة: مرجع مذكور ص ٣٢٣.
إريك ماكرو: ((اليمن والغرب ١٥٧١-١٩٦٢))
تعريب: حسين عبدالله العمري. لندن بدون
تاريخ، ص ٧٨.

V. Fontanier: ((Narrative يمكن
of a Mission to India)) London
1844, in Eric Macro: ((Yemen
and the western world since
(1571

د. جاد طه: مرجع مذكور ص ٧٨.
د. فاروق أباطة: مرجع مذكور ص ١٥٨.
انظر: د. جاد طه: مرجع مذكور ص ٧٧.

د. فاروق عثمان أباطة: مرجع مذكور ص V.
Fontanier: ((Narrative of a Mission to
India)) London 1844, in Eric Macro:
((Yemen and the western world since
(1571

د. جاد طه: مرجع مذكور ص ٧٨.
د. فاروق أباطة: مرجع مذكور ص ١٥٨.
انظر: د. جاد طه: مرجع مذكور ص ٧٧.
د. فاروق عثمان أباطة: مرجع مذكور ص
١٥٨.

يقصد ((إحدى المؤامرات الأكثر خزيًا في
التاريخ)).
لاشك أنه يقصد المله جعفر.

ووضعه على وثيقة التنازل. هذه هي حقيقة
الوثيقة المشرفة التي استخدمتها بريطانيا
لتؤسس ماتسميه: جبل طارق الثاني)).

من خلال قراءتنا السريعة لكل من نص
فيكتور فونتانييه ونص ل. سيمونان استطعنا أن
نلمس أن معظم الآراء التي طرحها الفرنسيون
حول مختلف الأمور بالاحتلال البريطاني لعدن
تصب أساسا في إطار انتقادات دولة استعمارية
لدولة استعمارية منافسة، هذا من جهة. ومن
جهة أخرى، حاولنا، خلال قراءتنا المباشرة
للتصين، أن نزيح النقاب عن إحدى السمات
المميزة للخطاب الاستعماري الذي يحاول أن
يوظف -في أحد شقيه- العديد من المبادئ
والقيم الانسانية والأخلاقية والسياسية، لا للدفاع
عن حقوق الانسان والشعوب، لكن لتأجيج
الصراع الاستعماري الذي أخذ يشتد في مطلع
القرن التاسع عشر وذلك عندما بدأت معظم
الدول الأوروبية تتأهب للانقضاض على تركه
((الرجل المريض)).

الهوامش:

احمد محمد بن بريك: ((اليمن والتنافس الدولي
في البحر الأحمر ١٨٦٩-١٩١٤)) رسالة
ماجستير، معهد البحوث والدراسات العربية،
القاهرة ١٩٨٠.

د. جاد طه: ((سياسة بريطانيا في جنوب
الجزيرة العربية))
دار الفكر
العربي. القاهرة بدون تاريخ. د. فاروق عثمان
أباطة: ((عدن والسياسة البريطانية في البحر
الأحمر ١٨٣٩-١٩١٨)) الهيئة المصرية العامة
للكتاب، القاهرة ١٩٧٦.

V. Fontanier: ((Voyage dans L'
Inde et le Gulfe Persique Paris
1844.

V. Fontanier: ((Voyage dans L'
Archipel Inden)) Ledoyen paris